الفوائد والآثار الإيجابية لحادثة الإفك فى ضوء السنة النبوية

Benefits and positive effects of the incident of Ifk In the light of Prophetic Sunnah

د. مسعود أحمد السندي[*]

ABSTRACT

Ifk (حادثه افک) is an Arabic word mentiond in Quran which means Slander. Incident of Ifk has a message and lesson especially for Muslim Umma, and for all humanity as a whole. This incident has great importance as it happened in the golden era of Prophet Muhammad (S.W.A). It directly affected the most respectful and honored personality in the history of Islam. Many lessons are taught by this incident. Noble and right righteous people, preachers, religious scholars do face hardships and face charges and blames from the society. Life has never been a bed of roses for them.

Incident of Ifk has been discussed in detail, with all its consequences. It teaches how one can take benefit and guideline on individual level as well as on collective level. This Incident tells us that only Allah Almighty has knowledge of everything apparent and hidden. Holy Prophet (S.W.A) is not all knower. He knows only what Allah has revealed to him. People should always avoid passing their judgment on leaders and reknowned scholars of Muslim Ummah without authentic evidence or conformation.

It is crystal clear that hypocrites and evil-natured people were wrong and became the victim of Allah's anger and were purified. As Quran proved the innocence of the Mother of Ummah "Hazrat Ayesha (R.A)" so people should always have a positive thinking and optimistic view for others, especially for religious scholars and leaders. Rumors, blames and wrong notions may lead towards great loss to nations and Muslim Ummah.

Keywords: ifk*; Conciliation between the Qur'ān and Ḥadīth; Scholarly Opinion.*

[*] أستاذ مساعد بقسم الحديث وعلومه، الجامعة الإسلامية العالمية–إسلام آباد

التمهيد:

عندما ظهر شوكة الإسلام وتغلغل في النفوس البشرية أرادت النفوس الدفينة للعداء لأحق الديانة البشرية إخراج ذنبها في حجمات آيسة ومردة عليهم، لأن نبينا ﷺ ينبؤ بكل خبر من عند رب البرية جل في علاه فكيف يكون لهم ذاك إلا وقد أخرجت أخباثها في دار الطهر والنقاء حيث لصقوا جناية بزوج أحمد صلوات ربي عليه فانزلق فيه بعض من رافق المصطفى في أجواء الحزن والرقى, فلم يبق إلا أن تنزل في نقائها وطهرها آيات من الكتاب المقدس وهي تتلى إلى يوم الآزفة

﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ علىكُمْ وَرَحْمَتُهُ... وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [(١)]

ثم أردف جل في علاه آيات تحث المجتمع النفيس النقي الطاهر أن يتجرأ من كل ما يلوثُ بيئتهم الطيبة بحيث لم يكن يسعُهم إلا أن يتلفظوا أن هذا ليس عليه ببرهان وأنه لم يكن أمر خير يتلقن به عن هذه الأسرة الخيرة وأن التُهم كان مردها إلى غير هذا أقرب:

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [(٢)]

فكانت هذه الحادثة تركت في كيانها أنواعاً من السلوكيات التي ستظل رائدة في المجتمعات البشرية إلى أن تقوم الساعة, ولأنها حادثة تحمل في طياتها كثيراً من الأخلاق الرزيلة والرفيعة كان يتطلب مني أن أقوم بدراسة هذا الموضوع القيم في ضوء السنة النبوية حيث تتم الاستفادة منها في عصرنا المؤلم، وقد قسمت البحث إلى المباحث الآتية:

المبحث الأول : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالعقيدة

المبحث الثاني : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالأخلاق

المبحث الثالث : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالتعامل فيما بين الناس

---

(١) سورة النور الآية : ١٤

(٢) سورة النور الآية : ١٥

المبحث الاول : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالعقيدة

ملكوت الغيب خاصية الله :

هذه الافتراءات على بيت أبي الزهراء لهي القاصمة الظهر لأولي النُهى والتُقى من أصحاب شرف الأُولى ممن عايشوا تلك المحنة لكنه كما يقال أَن كُل دفينةٍ قد تُورد عقبها ما يسرُ الناظر والمستمع ولقد شهدت القرون الأولى بذلك, فلقد عرف أهل الدهر أن صاحب الرسالة قد لبث قرابة شهر لم يُنبأ من لدُن رب البرية عما حدث فلبث هذه الفترة مترقبا لخبر السماء لعلَه يُنبأ بخبر يسره ومن اتبع الهُدى من الصحب الكرام البررة ولقد صدرت من فيه بما نزل الوحيُ به ما يستفادُ منه أنه لو كان مدركاً للمغيبات لجمع الخير لديه أكثره ولم يمسه ما يسوءه.

وتارة يرشده رب الإنس والجن بأن ينطق جهر القول قائلا إنما أنا داع إلى وحدة رب العباد وناف عن الإشراك به ولست قادراً على النفع والضر إلى غير ذلك من الأقوال النبيلة التي تليق بشأن النبوة مخبراً أن أهم المهام الموكلة إليه هي بلاغاً من الله ورسالاته، كما قال: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[(١)].

قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾[(٢)]، وقال عز وجل:﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾[(٣)]، أي: إلا أن تبلغ دين الله، ورسالة الله على مراد الله، كما قال:﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾.

إن فيه لدرس عظيم وعبرة للمعتبرين حول استعمال ألفاظ القرآن الكريم في المحاورات والمخاطبات والمجاوبات.

ومما لوحظ أن نبي الرحمة وأهله قد صدر منهم ما يعبر بـ :"إستخدام الآيي من الفرقان على غير مرادها في محاورة العرفان"، ولقد شهدت الأمم المرافقة من الصحب العظام في سماعها للخطب والنصائح وما يدور حول الأيام في الأحوال والمعاملات فمما لا يستهان به ما وقع من لفظ الصديقة بنت صاحب الغار بحيث وصفت قصتها مع أهل الشر والفتن من أصحاب يثرب حيث قالت أم رومان وهي أم عائشة قالت بينا أنا وعائشة أخذتها الحمى فقال النبي ﷺ :«لَعَلَّ فِي حَدِيثٍ تُحُدِّثَ قَالَتْ نَعَمْ وَقَعَدَتْ عَائِشَةُ قَالَتْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا

---

(١) سورة هود الآية: ١١٢

(٢) سورة الاعراف الآية: ١٨٨

(٣) سورة الجن الآية: ٢٢-٢٣

تَصِفُونَ »[1]، معناه: ولا يسعني في هذا المقام إلا قائلة أني مثلي ومثل أصحاب الشر لا ينحط ما وقع لأبي يوسف حين فورق بينه وبين ولده النبيل ثم زور الكلام عليه كذبا فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، فوقع المثل والممثل به في حادثة أم المؤمنين كما قال عنها رب البرية .

وكما لا يخفي على ذوي العقول ما ورد عن أحمد صلوات رب الكعبة عليه فيما فهمه المحدثون من حديثه حيث ذكر من يتقدم إلى أهل بيت فيه من يتقدم إليها من بنات العفاف والطهر فينبغي النظر والتفكير فيمن تقدم لبنتهم من حيث الخلق والدين وإلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ »[2]. وكما ورد عنه في غزوة خيبر: «فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ »[3]، وفي غيرها من المواقف المتكاثرة لا يتم حصرها لذا استنبط الإمام الهمام ابن عبد البر من هذه الروايات والإستشهادات الكثيرة أنه يستحسن الإستشهاد بالآيي الفرقان بما يحسن ويجمل من الكلام والأحداث، وكما أشار إلى ذلك الإمام النووي في شرحه للصحيح الإمام مسلم رحمه الله أنه يستشهد بها على الأمور المحققة[4]، وقد ألف في هذا الموضوع علماء الأسلاف مثل الإمام أبو منصور الثعالبي أسماه "الاقتباس من القرآن الكريم" .

إنزال الوحي خاصية الله :

مما اختص الله به هذا الدين الحنيف هو تواتر النزول للوحي عبر الحوادث والأحوال التي يمر بها الأزمان، ولا يخفى على ذوي العقول الراجحة أن ذالك ليس إلا بإرادة رب المعاد حيث يرى أنه أصلح للعباد أنزل وحيا يحي به من أراد إحياءه حياة طيبة ويهلك من يهلك في الهاوية، وقد تكاثرت الأفكار في حكم نزوله والآراء المتناثرة والعلم اليقيني عند بارئ الخلق ينزل بقدر احتياج الخلق إلى الوحي المنزل من ربهم الرحيم، فتارة يوحي إثر حادثة ملمة في المجتمع وهم في حاجة إلى البيان الشافي لصدور أولاءك الأفلاذ من الصحب العظام، وتارة يتوقف نزوله لبرهة من الزمان لحكم يعلمها رب الأرض والآفاق فتخرج أذناب

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير, باب قوله تعالى بل سولت لكم أنفسكم، دار السلام، ط ثانية، ٣/٢٥٤

(٢) الترمذي، مُحَمَّد بن عيسى، الجامع، كتاب النكاح، باب ماجاء إذا جاءكم من ترضون دينه، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/٣٨٥، رقم الحديث:١٠٨٤. ابن ماجه، أبو عبد الله مُحَمَّد بن يزيد، السنن، كتاب النكاح، باب الاكفاء، دار الفكر العربي، القاهرة، رقم الحديث ١٩٦٧، ١/٦٣٢

(٣) الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب مايحقن بالاذان من الدماء، ١/١٢٥، وكتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث ٩٤٧، ٢/١٥

(٤) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الحاوي للفتاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٠٣هـ،١/٢٥٩

الخبث فتتلائم في بيئة عصمه إله مُحَّد من نجاسة الصدر والأبدان فينتقمون ما أخفوه من كره والنكران، لكن الله سبحانه وتعالى له الأمر في كل حدث ذو حكم لا يدركها إلا ذو عرفان، فوقعة الظهار نزل الوحي إثر المحادثة فورا وحادثة الإفك في بيت الطهر المؤثر على حامل لواء النبوة يتوقف نزوله لمدة من الزمن، فالوحي هو بإرادة الله ينزل وبه يتوقف، ليس لأحد التحكم فيه غير الله جل في علاه وكان مما يجلي هذه الوردة في رونقها الجلي بحيث كان النبي ﷺ يسأل زوجته بـ : يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إليه فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عليه[1].

موالاة المؤمنين:

إن من الصور الجملية التي ظهرت في حادثة الإفك ولاء المؤمنين بعضهم لبعض، حيث اصطف الناس فيها إلى صفين لا ثالث لهما، إما صف المؤمنين وإما الكفارين، فلما تراشق الصحابة وكادوا أن يقتتلوا كان النبي ﷺ يشير عليهم بخفض الصوت، ولم يمنع هذا عائشة أن قامت فشهدت لسعد بن عبادة بالصلاح والصحبة لأنه من المؤمنين المبشرين بالجنة فقالت: "فقام سعد بن عبادة وكان رجلاً صالحاً فاحتملته الحمية"، وهكذا نرى أن غضبها ومصابها لم يمنعها من إنصاف سعد أنه كان من المؤمنين الصالحين كما وصفته ﵂.

وهكذا فعلت أيضا حمنة أخت زينب التي خاضت في حادثة الإفك عندما جاءها خبر وفاتها، فقالت: "رحمها الله إن كانت لأحب أزواج النبي ﷺ إليه"، فنرى أنها شهدت لها بالخيرية والإيمان وصنيعها دعوة إلى التآخي وموالاة المؤمنين بعضهم بعضاً.

الابتلاء في الأرض سنة كونية:

إن مما ينبغي أن يعلم أن الابتلاء سنة كونية، وأن الله تعالى إذا أحب عبداً ابتلاه، وليس أدل من ذلك أن الرسل والأنبياء وتابعيهم قد ابتلوا بأنواع الابتلاءات الكثيرة، فصبروا على ما أوذوا في سبيل الدين، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وسارت سنة الابتلاء حتى شملت أخير نساء النبي ﷺ أمّ المؤمنين عائشة، ﵂ فشتمت واتهمت في عرضها. إذاً الابتلاء سنة كونية ولا يتعجب بعدُ من تهكم في الصالحين أينما كانوا وحلوا.

الدعاة إلى الله معرضون للتهم:

أشد الناس ابتلاءً الأنبياء ثم أتباعهم من الدعاة والصالحين وحسن أولئك رفقياً، خاصة العلماء الربانيين الذين تعتبر لحومهم مسمومة والوقوع فيهم بالسب والشبهات طعن في الدين، فإنهم حملة الرسالة

---

(١) الجامع الصحيح ،كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ١٧٥/٣، رقم الحديث: ٢٦٦١

وورثة نبيهم.

وإن من طآمات زماننا هذا أن صار إشاعة الشبهات متفش في الناس، وأصبح إلصاق التهم بالدعاة والصالحين في علمهم وأخلاقهم دأب كثير من المرجفين والمنافقين الذين لم يألو جهدا في تحذير النساء من مجالسة العلماء الربانيين، وهكذا يعيد التاريخ نفسه حيث إنهم ماثلوا بصنيعهم هذا ما كان يفعله المنافقون ضد النبي ﷺ وأصحابه.

حادثة الإفك أظهرت فضل عائشة:

بلا شك إن حادثة الإفك تبين صدق عائشة أم المؤمنين ومكانتها الرفيعة فلولاها لما تبين الناس منزلتها وصدقها، ويكفي في هذا أن نزل قرآن يتلى إلى يوم القيامة يبين صدقها ومكانتها وفضلها على نساء العالمين.

وذلك ما جعلها مصدر عز وفخر لها حيث كانت تقول: " توفي النبي ﷺ في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري ... فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة"[١]. وما أعظم هذه الصفات وما أجملها من لحظات توضح مكانتها الشريفة التي لا ينقصها أيٌ من كان.

المبحث الثاني : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالسلوك الأخلاقي

قاعدة جوهرية في التعامل مع الأشخاص (حسن الظن) :

والأصل في هذه القاعدة هو قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .﴾ [٢]

ومن المؤسف جدا أن نجد مجتمعنا وهو يدعي أنه على أتم الأخلاق ولا يتخلى عن مثل هذه الرزائل، وهو سوء الظن بالغير، فلذا نجد الهفوات تلو الهفوات تظهر يوماً بعد يوم بسب ترك هذه القاعدة العظمى في المجتمع الذي نريد أن يكون طاهراً وبريئاً من الخبث والنجاسة، فلذا وقع الأمر الجلي من بارئ البرية بعدم وقوع أفراد المجتمع في الظنونات الكثيرة على قاعدة التجسس والنكيرة مرشدا إلى قاعدة عظمى لإقامة العدل والاعتدال وهو حسن الظن بالأفراد على ما ظهر منهم وترك السرائر وما لم يظهر منهم إلى رب السماوات والأرض رب الرحمة والعفو والغفران بذلك يتم التعايش السلمي والأخوي كل يود أخاه بما ظهر له.

وما وقع في هذه الإفكة إلا كان نتيجة سوء الظن وعدم العرفان بالظاهر، فلذا أدب الله المؤمنين

---

(١) الجامع الصحيح ، كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته، ١٣/٤، رقم الحديث: ٤٤٥١

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢

وما ذكر عنهم بحسن النية عن أهل بيت النبوة، ثم ثنى بعظم النطق بهذه الفرية بلا حجة وبرهان وأن التلفظ به ليس مجرد التلفظ وإنما الأمر يحمل في طياته أشياء نكيرة للمجتمع والأفراد ويشوه صورة البيئة الآمنة إلى بيئة مأساوية، ثم أرشد الله سبحانه عباده إلى عدم العودة لمثل هذه الافتراءات والأقاويلات التي تهز كيان المجتمع.

التريث في نقل الخبر نجاح حقيقي:

كما ثبت عن المتكلم بالوحي عن رب العباد كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع وقد بوب الإمام مسلم على هذا الحديث ما يذم على نقل القول بلا تريث وتأكد[(١)].

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[(٢)]، ثم بيّن سبحانه وتعالى أن التلفظ بهذا الكلام ونقله أمر عظيم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[(٣)]، ثم وعظنا الله عز وجل أن نعود إلى الوقوع في مثل هذا الذنب العظيم، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٤)].

ضرب رؤوس المجتمع ضرب للمجتمع:

يستفاد من حديث الإفك فوائد عظيمة، منها: أن الطعن في القيادة تعني الطعن في المجتمع كله، لذا الشعوب الناضجة تحافظ على قادتها، لأن بهم يحفظ كيان المجتمع بأسره، وكما أن إساءة الظن بهم والتقوّل عليهم يعني ضرب كيان الأمة المسلمة، لذا جاءت الشريعة الإسلامية تشنّع الصنيع على من يحاول شتم العلماء الذين جعلهم الله ورثة الأنبياء لذا صدق من قال: "إذا زل العالِم زل بزلته العالَم".

عار الزنا أعظم من عار الكفر:

إن من أكبر المحن التي وقعت بالمسلمين أنْ اتهمت زوجة نبيهم بالزنا، وما أعظمه من عار، حتى أن مصيبة الكفر لا تساويه، ونجد في سيرة الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم– أن زوجاتهم وآباءهم قد اتهموا بالكفر ولم يكن من بين ذلك من اتهم بالزنا، فهذا إبراهيم عليه السلام كان أبوه كافراً، وليس بعيدا عن ذلك أن امرأة لوط وابن نوح كانوا من الكافرين، فلم يعيّر أحد منهم بأبيه أو أهله ولا ابنه بجريمة الزنا.

---

(١) مسلم، مسلم بن الحجاج، الصحيح، المقدمة، : دار إحياء التراث العربي بيروت، دون الطبع والسنة، ١٠/١

(٢) سورة النور الآية: ١٥

(٣) سورة النور الآية: ١٤

(٤) سورة النور الآية: ١٧

وفي هذا السياق قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[١]، قال: ليست الخيانة خيانة عرض فكيف تتهم زوجة النبي ﷺ بالزنا وهم أحياء! فنزل النبي من على المنبر وعائشة تبكي ليلها ونهارها، وأعظم شيء هو أن النبي ﷺ لم يبرئها، بل هو متردد، وقد استلبث الوحي شهراً كاملاً لا ينزل؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، فكان عليه الصلاة والسلام يدخل البيت، ويقول: «كيف تيكم؟»[٢] ثم يخرج.

استخدام العبارات اللطيفة ومراعاة مشاعر الآخرين:

كذلك مما ينبغي رعايته هو استخدام العبارات المسلية ومراعاة مشاعر الآخرين عند الحديث العام، ومن ذلك ما ورد في سياق حادثة الإفك قول سعد بن معاذ الأنصاري يا رسول الله: "أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ"[٣]، وفي قوله تحرز وتأدب لأنه قبل مجيء الإسلام كانت هناك حروب طويلة بين الأوس والخزرج، لم يتعافى منها الطرفان إلا عندما جاء الإسلام الذي ساوى بينهم بنعمة الإخاء الإسلامي فصاروا إخوة متحابين في جلال الله وعظمته، إلا أنه ظلت بعض الرواسب القليلة في النفوس بينهما، فاحترز لأجل ذلك بقوله: إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، ولم يستثن ولم يحترز، بيد أنه أحتاط شديد الاحتياط باستعماله قول: وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، فقدّم لفظ الإخوة بدلاً عن ضرب العنق، خوفاً على حدوث الفتنة. وبرغم لطافة العبارة فقد حدث الذي خاف منه. فلم ترض هذه الكلمة سعد بن عبادة زعيم الخزرج ؛ لأنه أراد أن ينال شرف الدفاع عن الرسول ﷺ فسعد بن معاذ تكلم عن الأوس، فيريد هو أن يتكلم عن الخزرج ويقول أيضاً: إن كان من الخزرج ضربت عنقه، فساءه أن سعد بن معاذ يتكلم عن الخزرج وهو حي.

التماس العذر للمسلم:

إن من الحكم العظيمة التي نستفيدها من حادثة الإفك إلتماس العذر للمسلم، فعندما فات عائشة أم المؤمنين الركب لم تعتب عليهم بل قالت في حق النسوة إنهن خفافاً لم يحملن اللحم، وهنا لطيفة فيها إشارة إلى أن النساء كن خفافاً حيث مضوا من دونها وتريثت هي حتى وجدت عقدها، وقد تيقنت عند فقدها سيرجعون إليها، والشاهد أنها حاولت أن تجد لهم أسباباً تبرئهم بها بدلاً عن إلقاء اللوم عليهم.

---

(١) سورة التحريم الآية: ١٠

(٢) الجامع الصحيح ، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ١٧٥/٣، رقم الحديث: ٢٦٦١

(٣) المرجع السابق، كتاب التفسير، باب سورة النور، ١٢١/١

الطعن في الرموز هو دأب المنافقين في القديم والحديث:

الطعن في ولاة الأمور والعلماء هو دأب المنافقين والمرجفين قديماً وحديثاً، فنجد أن طعن عبد الله بن سلول زعيم المنافقين كان يقصد به في المقام الأول الطعن في النبي ﷺ وعليه ينبغي أن نعي شر الفتن والتي منها أن الطعن في قادة الأمة هو سبيل المنافقين وأن مجابهتهم وأخذ الحذر ضرورة شرعية.

قذف المحصنات من الكبائر:

إن من أكبر الكبائر قذف المؤمنات الغافلات بإلصاق التهم بهن وفي عرضهن، وقد استوجب الله سبحانه جزاء نكالاً لمن يقوم بذلك من المنافقين بأن لهم اللعنة في الدنيا والآخرة، واستقبح الشرع صنيع من يقومون بذلك وخوّف المؤمنين بأن من يقوم بذلك سوف تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

الولوغ في أعراض المسلمين:

إن من أعظم البلوى أن يقع المسلمون في أعراض بعضهم بعضاً وأن ينقلون الأخبار المسيئة إلى بعضهم بقصد أو بغيره، وتكبر المصيبة في استصغار الغيبة والنميمة والقذف، وصدق المولى عزوجل حيث قال: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[(١)].

فالله الله في أعراض المسلمين فإن حرمتها شديدة وفاعله يعاقب باللعنة وسوء المنقلب في الدنيا والآخرة. وكما لا يخفى علينا أن مفسدة الوقوع في أعراض المسلمين سبب من أسباب الفرقة والشتات بين كيان المجتمع الإسلامي حيث قال النبي ﷺ : «مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ أُرَاهُ قَالَ بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ بِهِ حَبَسَهُ اللَّهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[(٢)]، وتتكلم فيه وتطعن، وتتكلم بما يسوءه ويكرهه، ويتركك الرب جل وعلا؟![(٣)].

الرجولة والشجاعة في العفو لا في الانتقام:

لا شك أن الرجولة والإقدام في أن يعفو المرء ويصفح ويتمالك نفسه عند الغضب لا أن يبطش بمن هو قادر عليه، ومن ذلك الحلم في التصرف عند الغضب، وقد تجلى هذا الموقف في قصة الإفك حيث إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان ينفق على الصحابي مسطح بن أثاثة، وهو الذي قد خاض في عرض بنته الصديقة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فأبى أبو بكر أن ينفق عليه، وعندما نزل قول الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ

(١) سورة النور الاية:١٥

(٢) أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن، كتاب الأدب، باب في الغيبة، دار ابن الجوزي الرياض، ط ثالثة، ١٤٠٩هـ ، ٦٨٥/٢، رقم الحديث: ٤٨٧٨

(٣) الترمذي، الجامع، كتاب الادب، باب إكرام الضيف وقول الخير، ٣٤٠/٣

أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]. رجع أبو بكر عن موقفه فقال: لى يا رب نحب أن يفغر لنا. فأعاد نفقته على مسطح.

وهو موقف عظيم يتمثل فيه الرجولة الحقة والعفو والصفح عند الغضب والمقدرة على إيذاء الآخر، وهذا موقف يبين لنا مكانة أبي بكر الصديق رضي الله عنه[٢].

الاهتمام بوحدة الصف:

إن أكبر المواقف الحكيمة التي نستفيدها من حادثة الإفك قد تجلى في موقف النبي ﷺ في محاولته الدؤوبة التي رمى بها إلى إصلاح ذات البين والحرص الشديد على إلتئام شمل المسلمين. وذلك عندما بدأ الصحابة رضوان الله عليهم من التنابز بالنفاق وأرادوا الاقتتال فيما بينهم حيث ترك الحديث عن حادثة الإفك التي كانت تمس أحب أزواجه إليه فنادى فيهم بالتؤدة وخفض الصوت وعدم الفرق والتشاحن.

وهو موقف عظيم يدل أن النبي ﷺ قد كان مهتماً بوحدة الكلمة ما بين الصحابة وحريصاً أن لا يدع الشيطان يجد حظه في نفوسهم فيعمل فيهم الضغناء والشحناء التي سوف تفرق صفهم وجمعهم[٣].

المبحث الثالث : الفوائد المنتقاة من حادثة الإفك المتعلقة بالسلوك التعامل

أثبتت الحادثة أن بعد كل صعوبة تفتح أبواب اليسر:

من المحن تأتي المنح، وتحت كل مصيبة خير لصاحبها ولا أدل على ذلك من قصة أم موسى عليه السلام، فقد ابتلاها الله تعالى بأن أمرها أن تلقي ولدها في إلم، ثم انقلبت محنتها منحة وخيراً، ومثلها قصة الإفك ؛ فقد كانت محنة ومصيبة في البداية على عائشة رضي الله عنها ولكن الله تعالى جعل من بعدها خيراً كثيراً لها وللمسلمين، وغيرها من القصص.

أهمية المشورة والتأني فى الأمور:

إن مما يستفاد من حادثة الإفك المشورة فيما ينزل بالمرء من نوازل والتأني في اتخاذ القرار وعدم التسرع، ومن ذلك أن النبي ﷺ سأل أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال يا رسول الله "أَهْلَكَ وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا"[٤]، فأخبره بالذي يجده في

---

(١) سورة النور الآية :٢٢

(٢) الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، ١٠١/٦، رقم الحديث: ٤٧٥٠

(٣) المرجع السابق، كتاب الشهادات، باب تعديل النساءِ بعضهن بعضاً، ١٧٣/٣، رقم الحديث: ٢٦٦١

(٤) الجامع الصحيح, كتاب التفسير، باب تفسير سورة النور ٢٣٢/٢

نفسه له من الود، وأكد أنه لا يعلم عن أهله إلا خيراً، ثم استشار علي بن أبي طالب فقال: "يا رسول الله النساء غيرها كثير"، وأشار عليه بسؤال الجارية فأرسل ﷺ إلى بريرة التي أكدت له أنها لم تر في عائشة ﵂ عيباً، غير أنها كانت جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله؛ هذا هو عيبها، تعجن العجين وتتركه بلا غطاء، فكان يأتي الدجاج ويأكل العجين.

وبعد المشاورة والتأني صعد النبي ﷺ المنبر خطيباً في أصحابه فقال: « يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا »[١].

الزجر بالهجر تابع للمصلحة والمفسدة:

الزجر بالهجر قاعدة نص عليها العلماء، لكنها تدور مع المصلحة، والزجر أن تزجر العاصي والمبتدع بهجره، هذا هو معنى قول العلماء: "الزجر بالهجر" مثلاً: رجل عاصٍ تؤدبه امرأة ناشز تؤدبها بالهجر مبتدع تؤدبه بالهجر، وكل هذا في إطار المصلحة الراجحة، فإن النبي ﷺ الذي قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»[2].

هجر ثلاثة من خيار المؤمنين خمسين ليلة، هجر كعب بن مالك، و هلال بن أمية الواقفي، و مرارة بن الربيع ؛ لما تخلفوا عن غزوة تبوك، بل قال كعب: «وكنت آتيه في مجلسه فألقي عليه السلام، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ؟»[٣] ونهى النبي ﷺ المسلمين أن يكلموا هؤلاء الثلاثة.

وأيهما أولى بالهجر: كعب بن مالك، أم عبد الله بن أبي ابن سلول ؟ وهو رأس المنافقين، الذي تولى كبر حديث الإفك، ورمى السيدة العفيفة الطاهرة عائشة بالزنا، أيهما أولى أن يهجر، وأن يضيق عليه الخناق، وأن يؤدب؟ أليس هذا المنافق رأس المنافقين أولى بذلك؟! ومع ذلك قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله! أفلا نقتله؟ قال: «معاذ الله أن يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، وعاش هذا الرجل، وقد صان دمه وعرضه وحياته بإظهار كلمة الإسلام، ومات فصلى عليه النبي ﷺ ودفنه ؛ بل وكفنه ببردة له، وليس ذلك بنافع له عند الله، كونه يتدثر ببردة النبي عليه الصلاة والسلام لأن صلة الرحم أقوى من البردة، ومع ذلك فإن أبا لهب لم ينفعه أنه كان عم النبي عليه الصلاة والسلام، قال النبي ﷺ: «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا»[٤]،

---

(١) الجامع الصحيح ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: وأمرهم شورى بينهم، ١١٣/٩، رقم الحديث: ٧٣٦٩

(٢) صحيح مسلم ، كتاب البرّ والصلة والآداب، باب تحريم التّحاسد والتّباغض والتّدابر، ١٩٨/٤

(٣) الجامع الصحيح،كتاب المغازي ،باب حديث كعب ابن مالك، ٤٥١/٣

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الايمان ،باب فاطمة ﵂ ٤٥/١

فإذا كانت صلة الأرحام لا تنفع فالبردة لا تنفع من باب أولى، ومع ذلك صلى عليه ودفنه وسجاه ببردته وهذا يدلنا على أن مسألة الهجر خاضعة للمصلحة، فإن المسلم إذا هجرته إنما وكلته إلى دينه.

عقوبة من يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا وضرورة الحذر منهم:

مما يستفاد من حادثة الإفك أن الله تعالى قد رتّب عقوبة شنيعة لمن يحبون أن تشيع الفاحشة والأخبار الفاجرة وسط المؤمنين، حيث توعدهم المولى جلت قدرته بأن لهم عذاباً أليما في الدنيا والآخرة، وحذر الشرع الحكيم المؤمنين من إتباع خطوات الشيطان التي تؤدي إلى الفسوق والعصيان وارتكاب المؤمنين للمحرمات وأكبرها الغيبة والنميمة وأعظمها جرماً قذف المؤمنات خاصة أزواج النبي ﷺ.

الاستدلال على الصدق من مظانه:

أيضا إن مما يستفاد من حادثة الإفك أن النبي ﷺ قد عمل على التحقق من حادثة الإفك من أهل الصدق حتى يتحرى منهم الأمر، وفي ذلك سأل الصادقين والأمناء من صحابته رضى الله عنهم أجمعين، وقد سأل علياً رضي الله عنه فأشار إليه أن يسأل الجارية بريرة فقال: " وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ"، فوصفها بالصدق لأنها كانت ملازمة لعائشة رضي الله عنها ومطلعة على أسرار بيتها، وكما كانت توصف بالصدق والأمانة، وهو ما دعا النبي ﷺ إلى سؤالها فوجد عندها الحقيقة ناصعة بيضاء بأنها (عائشة) جارية حديثة السن وأنها لم تر منها إلا خيرا.

إرشاد المذنب إلى باب التوبة:

إن من التوجيهات النبوية العظيمة في حادثة الإفك أن النبي ﷺ قد أرشد عائشة إلى التوبة والاستغفار إنْ كانت قد فعلت ذنباً فقال"يَا عَائِشَةُ إِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ"[١]، فلم يغلق باب التوبة عليها، لأن الله يغفر الذنوب جميعاً وهو التواب الرحيم، وهو توجيه للدعاة والمصلحين أن لا يستعجلوا في أمر الناس بحيث يحملوهم على أن يقنطوا من رحمة الله بل عليهم بيان النصح لهم وأن الله يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن كثير.

كتمان أسرار الناس:

الداعية إلى الله تعالى هو مصدر ثقة كبير بين الناس، حيث ينظر إليه المجتمع نظرة الصلاح والخير، وبذا يضعون ثقته فيه فيعرضون عليه مشكلاتهم الخاصة، والتي منها ما هو خير وشر، وعليه فإن الداعية مثل الطبيب الذي يحكي له الناس أسرارهم فلا ينبغي له إفشاءها أو التحدث بها بين الناس.

وبلا شك إن كتمان أسرار المسلمين نوع من حفظ الدين، حيث إن العدو قد يستغل هذه الأخبار والأسرار في محاربة المسلمين، فحفظ أسرار المسلمين ضرورة شرعية ويتوجب أمرها في حق الدعاة

---

(١) أحمد، ابن حنبل، أبو عبد الله، المسند، مسند الأنصار، دار السّلام، الرّياض، ط أولى، دون السنة، ١٢٣/١

الذين هم أغير على الدين وحفظ حدوده[1].

الخاتمة

وفي الختام أود أن ألفت الأنظار إلى أهم النتائج التي تم الوقوف على مغزى الحادثة، وهي:

- إن حادثة الإفك تعتبر من الأحداث المؤثرة في الحياة الاجتماعية والفردية بحيث تركت الواقعة في تاريخ البشرية كثيراً من الآثار السلوكية والعقدية والأخلاقية.
- إنها أوجدت حلولاً ثقافية تحتوي على أسس التعامل بين الأفراد والمجتمع تحت كيان سياسي أو ديني.
- كما لا يخفي على من له إلمام بتاريخ الأمم وأحداثها أنها أوجدت أخلاقاً سامية في العفو والتسامح والتريث والاستشارة من الأخلاق الرفيعة بحيث يصعب على أهل التاريخ العثور على مثل هذه النواة في المجتمع.

فأسأل الله رب العرش العظيم أن يجعل هذا الجهد الضئيل مقبولاً، وهو القادر عليه.



(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه،١٢٨/٣، رقم الحديث: ٢٤٤٢. ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الأدب، باب تحريم الظلم، ١٩٦/٤، رقم الحديث: ٢٥٦٤